الآخرون

قصة

بقلم محمد ابو المعاطي ابو النجا

« مهداة إلى صديقي خالد الساكت »

حين سافر « محمود » الى الاسماعيلية في شتاء عام ١٩٥١ كمنـدوب لجريدة « ...... » الصباحية ، لم يكن يزعم امام نفسه على الاقل انـه ذهب ليكافح بقلمه في المعركة الباسلة التي يخوضها الفدائيون في « القنال » ضد اعداء الوطن . فقد كان متفاهماً مع نفسه على الدافع الحقيقي الذي من اجله سافر الى الاسماعيلية ، ومتفاهماً معها ايضاً على إخفاء هذا الدافع عن الناس وخاصة عن زملائه الصحفيين . بل وأكـثر من ذلك ، كان متفاهماً معها على أن يتشدق مع الناس ، بكلمات الكفـاح والبطولة والنصر وغيرها من الكلمات ، التي كانت وقتذاك بمثابة الخبز اليومي لمشاعر الناس الجائعة الى الحرية . اما حين يلقى نفسه وجهاً لوجه ، بعيدين عن الناس ، فقد كان يتحدث اليها في صراحة . لقد جاء الى الاسمـاعيلية ليلقى هؤلاء الفدائيين . ليتحدث اليهم ، ليعرف لماذا اتوا الى هنا ؟ لماذا جاءوا ليقامروا بحياتهم ؟ طبعاً لن يتحدث معهم هكذا في صراحة !. وإنما هو يعرف كيف يحملهم على ان يتحدثوا . على أن يقولوا كل شيء .

ما هو هذا الوطن الذي يبذلون من أجله حياتهم ؟ ما مدى إحساسهم به وما مدى إحساسهم بحياتهم تلك التي يبذلونها ؟.. إنـه يفهم ان يكافح الانسان من أجل سعادته .. ان يناضل ، ان يتألم ، ان يشقى من أجل حياة سعيدة . أما ان يفقد الانسان حياته نفسها ، فهذا ما لا يمكن تصوره بحال ..! هل هناك شيء أغلى من الحياة ذاتها ، حتى يمكن ان نبذلها من اجله ?. يقـولون : الحرية ! ولكن ، مـا هي الحرية ? إنها احدى حاجات الحياة . وحين نفقد الحياة ، نفقد معها حاجتنـا الى الحرية ! يقولون الحرية من اجل الآخرين! ولكن ، من هم الآخرون هؤلاء ؟ إنه لا يكاد يحس بهم . وهم ايضاً ، هل تراهم يحسون به ؟ هل يحسون به إلا حين يحتاجون اليه ؟ وهل يحس بهم إلا حين يحتاج اليهم ؟ وحين يموت الانسان ، ماذا سيبقى منه ليحتاجه الآخرون ؟

وكان يحلو له احياناً ان يتصور الآخرين . ان يقف ليتأملهم ، وهم يمضون في طريق الحياة ، وراء احلامهم وامانيهم ، لا يكاد كل واحـد منهم يشعر بمن حوله من الناس .. الفتاة الجميلة التي تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها .. الاب العائد الى البيت وفي يده حقيبة من الورق ملأها احلاماً لاولاده الصغار .. عم محمد الذي يبيع الفول في الصباح ، ويأخذ ثمنه بالصلاة على النبي .. العوضي الذي يبيع الجرائد في ميدان « العتبة » دون ان يعرف شيئاً مما فيها .. الخواجه ديمـتري الذي يبيع العمال اردأ انواع الخمور في بار السعادة ، ويأخذ منهم الهموم والقروش .. الخ .. الخ ..

إن هؤلاء جميعاً لا يحسون به وهو حي . فهل يحسون به بعد ان يموت؟ أي شيء يدفعه لان يفقد حياته من اجلهم ? انه لا يملك الا حياته هو . الآن . وحين يفقدها سيفقد معها كل شيء .. كل شيء ..

كانت هذه الخواطر تتلاقى خلسة في رأس محمود ، كأنما تخشى ان يراها أحد . احد من داخل نفسه لا من خارجها ، فقد كانت هذه الخواطر تخاف من محمود ، او بعبارة ادق انه هو الذي كان يخاف منها . كان يخجل ان تكون تلك خواطره ، وانه يحمل رأسه افكاراً لا يجرؤ ان يواجه بها الناس . وكم حاول ان يقتل هذه الخواطر في نفسه ، تارة بالمناقشة ، واخرى بالتجاهل . ولكنه في كل مرة كان يخرج منهزماً من المعركة .: وحين سافر الى الاسماعيلية ، كان يعتقد أنه سوف يضع حداً لهذه المعارك التي لا تنتهي . سيلقى هؤلاء الفدائيين ، سيتحدث معهم طويلا ، سيعرف منهم كل شيء . كان يحس احساساً غامضاً يملأ جوانب نفسه بأنه لا بد ان يكون هناك شيء وراء تلك الاعمال الفائقة التي يقومون بها ، شيء يفوق احساسهم بالحياة ذاتها !!

وكان ايمانه بوجود هذا الشيء ، هو الذي منع الياس من ان يتسرب الى قلبه ، حين امضى قرابة شهر بالاسماعيلية دون ان يصل الى ما كان يريد . كان بطبيعة عمله كمراسل حربي يتصل بالفدائيين لينقل إلى جريـدته انباء كفاحهم . وكان في خلال ذلك يحاول ان يكسب ثقتهم ، ليتحدثوا اليه عن حقيقة مشاعرهم ، وهم يعانون تلك التجارب الهائلة ، التي يصورها — من الخارج — إلى قرائه . وكانوا يتحدثون . بيد أنه كان يشعر شعوراً قوياً بأنهم لا يقولون كل شيء . إنهم يرددون نفس الكلمات التي يرددها الناس ، عن الوطن والحرية والكفاح ، تلك الكلمات التي فقدت مدلولاتها بالنسبة له ، ترى هل يختلف إحساسهم بها عن إحساسه ? لا يدري . ولكنه مع ذلك يحس ان هناك اشياء خفية داخل نفوسهم لا يستطيعون التعبير عنها ، ولكنهم يحسونها بلا ريب . اشياء تجعلهم يعشقون ارض المعركة ، كما يعشق المقامر مائـدة اللعب . أشياء يغرق فيها احساسهم بالحياة ذاتها . ولكنهم ابداً لا يعرفون كيف ينقلونها اليه ..

وأصبح يضيق بهم ، بـل لعله اصبح يضيق بنفسه ! من هو ? ومن هم ? كانهم غرباء! كان يتساءل في مرارة قاسية: ترى هل يختلف إحساسه بالحياة عن إحساسهم بها? إننا لا نُمنح الحياة إلا مرة واحدة . ومن هنا كانت الحياة قيمة في ذاتها ، فكيف نقامر بها هكذا كأننا نملك منها الكثير ! ويشعر محمود بأنه يريد ان يحطم رؤوس الفدائيين ليرى ماذا بداخلها ? هـل هم حمقى ، أم انهم فقدوا صفاتهم الانسانية ، ام ماذا هم ?. واحيانـاً ، كان محمود يتمادى في تساؤله .. اليس من الجائز ان تكون الحرية بالنسبة لهم هي لب الحياة وقيمتها ، وان تكون الحياة بدون حرية امراً لا قيمة له ?? ويمط محمود شفته السفلى حين يرد على تساؤله .. اليسوا ايضاً يفقدون حريتهم حين يفقدون حياتهم ? اليس الموت عبودية مطلقة ?

وفي اصيل يوم من ايام ديسمبر ، والشمس تأخذ طريقها الى الغروب ، كان محمود يسير جنباً الى جنب مع « حسن » الذي تعرف اليه منذ ايام . كان حسن يحكي للمرة الثانية او الثالثة قصة هربه من اهله ، ليتطوع مع الفدائيين ، وكيف ان اباه كان يعارض في مجيئه ، وان امه كانت تبكي حين علمت بنيته في التطوع ، وكيف ان المعلم « وهبه » صـاحب الورشة التي كان يعمل بها قال له ، حين علم برغبته في التطوع :

— يا بني . ربنا يهديك . خليك معانا . وأنا ازودك خمسة قروش في اليوم .

وكيف انه فعل ذلك بايعاز من ابيه بعد ان قال له : سأعطيك انا هذه الزيادة . إن اباه لا يريده ان يتطوع لانه اكبر ابنائه ، ولانه يخاف عليه ؛ ولكن الا يعلم ابوه ان الاعمار بيد الله ، وانه من الجائز ان يموت وهو في

البيت . وماذا لو مات هنا ؟ سيموت شهيداً ، وسيذهب إلى الجنة بغير حساب وهناك في الجنة سينال كل شيء. كل شيء . فضلاً عن انه سيستريح من وجه المعلم وهبه ، الذي يجمع نكد الدنيا كلها في ملامحه القاسية . إن كل ما في الدنيا لا يساوي شيئاً بجانب الجنة . هذا مـــا كان الواعظ يقوله كلما زار مسجد القرية ، وهذا ما جعل حسن يحرص على أن يتطوع لتكون له الجنة بغير حساب . وكان محمود يسمع أيضاً للمرة الثانية او الثالثة نفس القصة في شغف زائد ، كانت تستهويه تلك البساطة العجيبة التي يتحدث بها حسن ، وتلك الصراحة التي لا تقف عند حد . كان حسن شاباً ودوداً يختلف عن سائر من عرفهم محمود من الفدائيين . كان يتحدث معك في بساطة عن كل ما يتصل به ، كما لو كنتا صديقين قديمين ، ولعل هذا هو مـــا ربط بين محمود وبينه منذ اول لقاء . كان محمود يحس انه ليس في حـــاجة الى ان يكسر رأس حسن ، لان افكاره توجد خارج رأسه لا داخله . ولم يكن يحاول ان يسوقه الى حديث معين ، لان حسن نفسه كان لا يحب ان يترك شيئاً دون ان يتحدث عنه . وكان طابع الصراحة التي تتميز بها احاديثه ، هو ما جعل محمود يستمع الى ثرثرته التي لا تنتهي ، دون تبرم أو قلق . على ان الجنة كانت هي حلم حسن الاكبر ، الـــذي لا تكف أحلامه عن التحليق حوله في كل حديث !!

وقال محمود وهو يتطلع أمامه :

— أوه . . لقد سرقنا الحديث ، وبدأنا نقترب من طريق المعاهدة . ألا تحب أن نرجع ، أم تعتقد انه من الممكن لو واصلنا السير ان نصل الى الجنة !.

فضحك حسن ، واهتز جسمه القصير الممتلىء ، وتألقت عيناه الضيقتان . وقال وهو يضرب بيده على مؤخر البندقية التي لم تكن تفارقه :

— لا تخف . . انت معك بطل .

وقفلا راجعين . كانت نسمات الشتاء الباردة تلفح وجوهها ، والارض الرملية تتلاقى فوقها ظلال النخيل الطويلة ، وكأنما تحاول ان تغطيها من ليل ديسمبر القارس الطويل . ومحمود وحسن يسيران جنباً الى جنب . كانا صامتين . وكانت ملامح محمود الدقيقة المرهفة ، تنم عن ذلك الذي يحاول جاهداً ان يخفيه ، على حين كانت ملامح حسن تفضح رغبته في الثرثرة ، تلك الرغبة التي لم تجد من ملامح محمود المضطربة وخطواته المسرعة مـــا يشجعها على ان تتحقق .

وحين بدأا يقتربان من الدروب الملتوية وسط الهضاب ، كانت هناك عربة « جيب » انجليزية تقبل جهتها مسرعة في جولة استكشافيـــة . ولم تكد تقترب منهما حتى اطلقت عليهما النار دون ان يشعرا بها . فانبطحـــا ارضاً ، وفي غير روية راح حسن يطلق النار هو الآخر على مؤخرة العربة في دورانها لتحتمي بالهضبة الشرقية ، فأصيبت عجلتها الخلفية ، وتوقفت عن المسير وسط ارض مكشوفة . وهنا وجد حسن نفسه مرغماً على ان يخوض معركة غير متكافئة . لقد هبط الجنود الانجليز في سرعة خاطفة ، منبطحين على وجوههم ، وتحصنوا بالعربة ، وراحوا يطلقون النـــار . . كان حسن يرد على الطلقات المجنونة في بطء وحـــذر . كان يخشى ان تضيع طلقاته في الهواء . .

اما محمود الذي كان يرقد على مقربة منه ، فانه في هذه اللحظـــات لم يكن يشعر بشيء مطلقاً . كان قد فقد قدرته على الاحساس بـــأي شيء ، حتى بالخوف . كان كقطعة الارض الجامدة التي يرقد فوقها ، حتى نظراته ، لقد جمدت هي الاخرى فوق مكان من الارض لا تحول عنه . . وشيئاً فشيئاً ، بدأ محمود يسترد مشاعره ، بدأ يحس بالخوف يزلزل كيانه ويعصف بارادته ، وراحت نظراته الزائغة تتلمس طريقها الى حسن ، حتى عثرت عليه . وفي هذه اللحظة كانت مشاعر محمود تعاني انقلاباً هائلاً ، لقد بدأ يحس كأن حسن ليس شخصاً آخر منفصلا عنه ، وإنمـــا يحس كأنه صار قطعة منه ! أجل ؛ فـــان اية رصاصة تصيب حسن سوف تقضي عليه ايضاً . كان إحساسه بحسن يزداد كل لحظة عمقاً وصلة ، وكأنمـــا يستحيلان شخصاً واحداً . إنـــه الآن يشعر بنوع من الهدوء يتسرب الى قلبه . ووجد نفسه يزحف الى جوار حسن . لا يدري كيف فعل ذلك ، وعندما اقترب ادرك ان حسن مصاب ، وأنه يبذل جهداً كبيراً ليتماسك . ووجد نفسه يأخذ منه البندقية ، ويغير مـــكانه قليلاً ، ويعاود اطلاق الرصاص . ولا يدري كيف حدث ذلك ايضـــاً ، لقد احس كأن حمى هائلة تجتاح كيانه ، وتكتسح أمامها كل خوف او تردد ، كان يحس ان الرصاصات التي يطلقها تبطيء في طريقها الى العربة . و . . . فجأة ، توقفت البندقية التي كانت تحاول عبثاً ان توقف سيـــل الرصاص المجنون ؛ كانت الرصاصات قد نفدت منه . وتلفت حواليه في ذعر . فأدرك انـــه اصيب . كان هناك خيط من الدم يتلوى امام عينيه ، فتمتصه الارض الرملية النهمة. لم يكن يدري من اي مكان في جسده ينبعث هذا الخيط . وامتدت يده تتحسس جسده ، كأنما لتوقف الخيط اللعين ، ولكنه كان لا يزال يتلوى ويمتد . . إنه سيفنى الآن . . سيموت . . سيموت . ولم يعد يبصر العربة . ولم يعد يسمع الطلقات. وتحولت نظراته الى حسن. كانت عيناه موارتين ، وأيضاً ، شفتاه . كان لاول مرة لا يثرثر ولا يتحدث عن نفسه . وأحس محمود برغبة في ان يبكي ؛ إنه هو الآخر سيموت . ولكنه لم يمت بعد . إنه لا يزال حياً . إنه لا يزال يعيش . ان حسن هو الذي منحـــه هذا القدر من الحياة . هذه اللحظات التي يعيشها الآن . ان حسن هو الذي تقدم وأعطاها له .

. . . وبدأ يدرك شيئاً ، إنه هو الاخر يمنح الحياة اناساً آخرين. ولاول مرة بدأ يحس بهؤلاء الاخرين . يحس بهم كأنهم ايضاً قطعة منه . ولاول مرة بدأ يدرك الصلة العميقة التي تربطه بهم . إنه يمنحهم الحياة التي يفقدها هو . الفتاة التي تقطع الطريق مسرعة الى لقاء حبيبها . . الاب الذي يعود الى بيته وفي يده احلام اولاده الصغار . . عم محمد بائع الفول . . العوضي بائع الجرائد ، حتى الخواجه ، حتى العمال السكارى . كل هؤلاء : انه يتيح لحياتهم ان تستمر ، ان تبقى ، ان تمتد. إنه الان يحس ان شعورهم بالحياة ينداح في قلبه . . . فرحهم . . . املهم . . . ترقبهم . أجل ، فحياتهم لم تعد غريبة عنه وفي لحظة متألقة ادرك ان حياة الناس جميعاً تلتقي في صعيد واحد . ولكنه لم يقف قبل هذه اللحظة في هذا الصعيد .

وذاب في أعماقه شعور مرير بالاسف . انه يفقد الحياة بعد ان عرفها لاول مرة . وادرك في قسوة انه لم يعش قبل هذه اللحظات . لا بل كان يعيش ، كان يعيش داخل قوقعة مظلمة ، داخل ذاته ، وحين انطلقت بعض الرصاصات وحطمت تلك القوقعة ، بدأ يحس بالاخرين . بحياته تعـــانق حياتهم ، وتفنى فيها وتذوب . . ومرة اخرى بدأ يبصر الخيط اللعين ، إنه لم يعد خيطاً واحداً . وتشبثت يده بالخيوط الحمراء المتشابكة ، كأنما ليمنعها من ان تنسرب . وبدأت يده ترتعش ، وتضعف عن ان تظل ممسكـــة بالخيوط الحمراء . وادرك في غيبوبة مرتعشة : ان هناك احذية ثقيلة تقترب ، واصواتاً تلغط . ثم أخذت هذه الاشياء تنبهم في وعيه . وكان برغم ذلك يتبين خلالها بصورة غائمة . . نجوى حلوة . . ومناغاة اطفال . . وصوتاً يبيع الفول . . والجرائد . . وعربدة سكارى . . و . . ولا شيء .

القاهرة **محمد ابو المعاطي ابو النجا**